الفصل الرابع

كيفية إصدار الكلام

اللغة سر المبدع سبحانه فى خلقه من بنى الانسان ، ومن أجل نعمه عليهم ، والبشر ينطقون بها بيسر وسهولة ، وتتحقق ثمرتها فى ثوان ، مع أن « ديناميكيتها » وكيفية اصدارها لغز كبير حار العلماء فى فهمه ، لأنها فى حقيقة امرها عملية غاية فى التعقيد ، ويحتاج الباحث فيها لعون كثير من علماء العلوم الأخرى ، مثل : تحليل الأصوات وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، والتشريح ، ووظائف الأعضاء ، وهندسة الصوت ، وطريقة انتقاله . الخ .

واللغة — كما سلف — أكثر من مجموعة أصوات ، ومع الرقى والنضج أصبحت اداة الحضارة ، بعد أن كانت ظاهرة انفعالية تترجم العواطف والانفعالات ، وترجم الانسان بها عناصر الحياة الى رموز لغوية يتفق عليها ، تختزن فى الذهن ، وتستحضر وقت اللزوم ، لعلاقة مسبقة ، فتصدر الأصوات أو تكتب الرموز ، فتعبر عن المعانى حين تتكامل عملية التكلم ، ويختار الذهن للحدث ما يناسبه وما يشابهه من رموز لغوية .

ولذلك فان اللغة لها أوثق الارتباط بالفكر ، وهى وسيلته أيضا ومساعدته كما أنها تقيد حركته وتنظمها .

يقول (ماريو بـاى) عن الارتباط بين الظـاهرة النفسـية والحركـة العضوية : « عملية الكلام تتكون من جانبين : عضوى ونفسى . وحـركة الكلام تبدأ من الرباط النفسى أو العقلى ، الذى سبق الاتفاق عليه فى عقول المتكلمين ، بين دلالة معينة ومجموعة من الأصوات ترمز اليها ، ولكن سرعان ما تنتقل الى العملية العضوية عن طريق اشارات عصبية ، يرسلها العقل الى الجهاز النطقى لانتاج الصوت المطلوب .

وفى الحال تبدأ مهمة الجهاز النطقى ، الذى يصدر أصواتا متتابعـة مسموعة تنتقل عن طريق موجات صوتية الى أذن السامع .

وأذن السامع بدورها توصل الرمز الصوتى الذى استقبلته الى العقل الذى يعطى هذه الرموز قيمتها ، ويترجم الرسالة على ضوء ما اختزن فيه سابقا ، من علاقة بين الرمز الصوتى ومدلوله ، سواء اتفق الفهم تماما مع مافى ذهن المتكلم أم لا » .

ومعنى ذلك : أن عملية الكلام تتم على هذا النحو (١) :

(أ) التفكير العقلى أولا ، ونظرا لأن التشريح للمخ لم يكشف عن « ديناميكيته » وماهيته تماما ، فان الباحث اللغوى لا يقف طويلا عند عملية التفكير وتفسيرها بالتفصيل ، أمام هذه العملية الفكرية والأولية .

(ب) اصدار الكلام من جهاز النطق (Production).

(ج) الموجات الصوتية الخارجة من فم المتكلم ، والواصلة — عبر الهواء — الى اذن السامع (Transmission) .

(د) العمليات العضوية التى تقوم بها أجزاء الأذن (Reception) بعد استقبالها للصوت .

(هـ) ترجمة المخ للرسالة التى وصلته ، والتصرف على مقتضاها ، حينما يكون الكلام مفهوما ومفيدا .

معنى هذا أنه لابد من متكلم ، ومخاطب ، وأشياء تجول فى الفكر ونريد التحدث عنها ، ورموز متفق عليها ، لها فى الذهن صور ومعان معينة .

وقبل كل هذا لابد من مؤثر : خارجى أو داخلى ، يدفع الى الكلام ، حتى تأتى مرحلة تكوين الرسالة واطلاق أصواتها من المتكلم . وانتقالها عبر الهواء فى موجات صوتية ، حتى تتلقفها اذن السامع ، وترجمة المخ لها ، وأخيرا : تصرف المستمع على مقتضى الرسالة التى وصلته ، طبقا لما تحمله من معنى .

والصوت عنصر أساسى فى عملية الكلام ، فكيف يحدث الصوت ؟

يحدث من احتكاك جسم بآخر ، فيكون الاهتزاز أو الذبذبة ، التى تتدافع وسط الوسط الناقل لذلك الصوت ، حتى تصل الى آذان السامع .

---

(١) لمزيد من الفائدة ، راجع فى هذا الصدد : أسس علم اللغة ص ٤١ ، وأضواء على الدراسات اللغوية ص ٧٦ — ٨٩ وفى علم اللغة العام ص ٩٥ — ١٠١

والصوت الانسانى لا يخرج عن هذا النطاق : فهواء الزفير الخارج من الرئتين ، يمر عبر القصبة الهوائية مندفعا ، حتى يصل الى الحنجرة . وهنا قد يجد الوترين الصوتيين مشدودين أو متراخيين ، وبالتالى تكون فتحة المزمار ضيقة فى الحالة الأولى ، أو واسعة فى الحالة الثانية . فيحتك بالوترين ويهزهما بشدة فى الأولى ، وبضعف فى الثانية . وينتج عن الاهتزاز صوت ، تضخمه الحنجرة والفراغات الأخرى الأنفية أو الفمية .

وقد لا يجد أمامه عقبة تعترض طريقه من الحنجرة حتى الشفتين ، فيخرج دون أن يحدث صوتا مرة اخرى ، والعكس بالعكس .

اى أن الصوت اللغوى يعتمد فى التصويت على الوترين ، أو على نقطة الانسداد أو عليهما معا .

كل هذه العمليات لاحداث صوت وأصوات تتركب بعدئذ من هذه الأجهزة التى لم تخلق أساسا للنطق .

* * *

أما فى اصدار الكلام فتتحول الصورة الذهنية الى صورة صوتية ، ومن قبل ذلك كان هناك دافع ومؤثر حسى أو معنوى ، ثم تنتقل الأصوات بوساطة تموجات فى الهواء ، حتى تصل الى أذن السامع ، ثم تنتقل الى ذهنه ليكون رد الفعل لديه بعدئذ .

والمؤثر الخارجى يأتى عن طريق الحواس ، كأن يرى الانسان صديقا فيسير نحوه ويحييه ويسأله عن حاله ، أو يرى أشياء عند البقال فيخاطبه فى شراء ما يلزمه وقد يكون المؤثر داخليا : كشعور الانسان بالجوع أو العطش أو الفرح او الاعياء فيعبر عن حاله بأى وسيلة ، ومنها اللغة :

فاذا رأى الولد تفاحا ، وقال لوالده : « هات لى تفاحة يابابا » . فقد يستجيب له والده ويعطيه واحدة ، وقد لا يستجيب له متعللا بأى شىء

فقد تكونت الرسالة فى ذهن الولد ، ثم أطلقها أصواتا « فونيمات » الى والده من الرموز المناسبة والمخزونة فى عقله ، ونقلها الهواء الى أذن الوالد . وهذه كلها مرحلة تخص المتكلم وحده حين دفعه المؤثر ، وساعده الهواء على نقلها الى أذن المخاطب .

أما المرحلة الثانية فتخص المستمع ، ونقلتها اذنه الى مخه ، ليعيد تركيب الرسالة الصوتية التى وصلته الى المعنى الذى تحمله ، ثم يستعين فى الترجمة ورد الفعل بالمخزون المناسب فى مخه ، وايضا بالرموز المتفق عليها ، والمناسبة للمقام والحال .

فقد اختار الولد المعانى ، ووضعها فى القوالب الجاهزة لذلك ، والمتوفرة فى لغته ، فى وحدات تناسب مفهوم الحدث الذى اثاره فانفعل به ونطق ، وكان رد الفعل من السامع فى اطار وحدات لغوية متعارفة ، ومحكومة بضوابط يلتزم بها فى المجتمع اللغوى الذى يعيش فيه .

وتسمى هذه الوحدات عند اللغويين « بالمورفيمات » (والمورفيم هو بصورة عامة — أصغر وحدة لغوية ذات معنى كالمفردات المجردة ، وال التعريف وكل تغيير صرفى يطرأ على المفردات) .

على أن المتكلم او السامع يفضلان رمزا على غيره ، وقد يكون الرمز متصفا بصفة ترجح هذا الرمز او ذاك : كالجملة الاسمية ، او الفعلية ، والتعريف او التنكير ، والتأكيد او عدمه ، وبالتنغيم والانسجام الصوتى أم لا ... حسبما يتراءى لهما

والملاحظ : انه اختار القوالب الصوتية المتعارفة فى مجتمعه ، ورتبها حسب المتبع لغويا مع جماعته ، وحين اصبحت الرسالة جاهزة اصدر العقل اوامره الى اجهزه النطق المختلفة ، لتؤدى الحركات المعينة اللازمة لنطق هذه الجملة ، فتصدرها . « وقد رأينا مدى التعقيد والجهد والحركة فى اصدار الحرف الواحد ، فما بالك بحروف لها جرس ورنين ولون يختلف عن غيره » .

وحمل الهواء الاهتزازات الصوتية ، وامتدت الى مسافات محدودة او بعيدة اذا كانت ترفدها وسائل التوصيل والتقوية ، التى أوصلتها الى الفضاء اللانهائى .

وتلقفت الرسالة أذن السامع ، وتناقلتها فى اقسامها عبر الأعصاب الى العقل فقام المخ بحل رموزها الصوتية ، وترجم المعنى الذى احتوته طبقا لقواعد اللغة فى العلاقة بين الصوت والمعنى .

جملة بسيطة فى غاية السهولة ، بقدر السهولة التى يستخدم بها

الانسان الهواء فى التنفس ، أو الطعام فى التناول .. لم تستغرق من المتكلم والسامع ثوان ، فى الاصدار وحل الرموز والاستجابة ... بينما حاول اللغويين حل « ديناميكية » هذه العملية بصعوبة بالغة ، ومشقة فى التحليل وضروب من اليقين والتخمين .

* * *

ولذا سبق أن قلنا : ان اللغة اكثر من مجموعة أصوات ، واكثر من أن تكون أداة للفكر ، أو تعبيرا عن عاطفة هى جزء من كياننا (البسيكولوجى) الروحى ، وهى عملية فيزيائية اجتماعية (بسيكولوجية) على غاية من التعقيد .

واذا قام (الكومبيوتر) بجزء من العملية الكلامية ، على غرار ما يصنع الانسان على هذا النحو من التعقيد .. فان العقل الانسانى أقدر وأوفى وأكمل وأتم ، لأنه يبدع على غير مثال ، ويتصرف ويعطى بارتجال مقبول حين تلجأ الضرورة والحاجة . « **فتبارك الله احسن الخالقين** » . (١)

حين تتم معجزة الكلام المثيرة ، التى تحدث مالا يحصى من كلمات من عدد محصور من الحروف والأصوات ، والتى تعيش هامشيا ، أو طفيلية على أعضاء لم تخلق اساسا لها . كما انها تتكون تجسيدا بواسطة نفايات من الضرورى لنا أن نتخلص منها ، يقول .(R.H. Robins) : هل تستطيع أن تدلنى على احد يستطيع ان يستغل النفايات بطريقة أجزى وأكثر كفاية واهمية من استعمال الانسان لنفايات عملية التنفس » ؟ .

فما الكلام سوى اعتراض لسبيل الهواء الفاسد المطرود من الرئتين ، والمشبع بثانى أوكسيد الكربون ، فى أثناء صعوده فى المجارى الهوائية ، واستغلال هذا الهواء الفاسد افضل استغلال . وهذا الكلام لا يكلفنا الكثير من العناء : فالهواء الفاسد هذا لم يعد ينفع الجسم ، وهو خارج منا شئنا أم ابينا . وكل ما نفعله — كما يذكر الدكتور نايف خرما — هو أن نعترض سبيله اما عند الحنجرة ، أو مافوقها حتى الأسنان والشفتين ، ونصنع منه معجزة الكلام ، هبة الخالق لنا .

---

(١) المؤمنون : ١٤